حديث السعودية
الأحد 3 شعبان 1446هـ الموافق
2 فبراير 2025م

الوعي في زمن الضجيج!

محمد البلادي
Twitter: @m_albeladi

■ في أزمنة سابقة، كان مجرد محاولة الوصول لمعلومة محدودةٍ يُعدّ مشقّة محفوفة بالمخاطر.. فعلى الباحث أن يقطع المسافات الطوال ليلتقي بعالم في منطقة نائية، أو ينقّب عن مخطوط بين رفوف مكتبةٍ قديمة.. اليوم، تغيرّ كل شيء، فالمعرفة باتت تحيطك من كل جانب، وتلاحقك أينما يمّمت وجهك، تُغرقك بالمفاهيم النفسية، والنظريات الفلسفية، ومحاضرات الوعي الذاتي التي أصبحت تُطرح كما تُطرح عروض السلع «اشتر واحدة وخذ الثانية مجانًا»!

■ لا جدال في أننا نعيش عصرًا غير مسبوق من حيث الانفتاح والتدفق المعلوماتي، فكل شيء بات متاحًا بمجرد ضغطة زر بسيطة.. أنهار من المعلومات تأتيك قبل أن تقوم من مقامك، وأحيانًا قبل أن يرتد إليك طرفك.. فيديوهات مفصلة عن قوانين الطاقة، دورات كاملة في التنمية البشرية، وكتبٌ تتحدث عن السلام الداخلي وكأنه وصفة طبخٍ سهلة التطبيق.. نعم، أصبح بإمكان أي شخص أن يجلس على مقعده الوثير، يشرب قهوته الصباحية، ويقرأ في فلسفة «إيكهارت تولي»، أو يستمع لمقطع من أدب «باولو كويلو»، فيشعر للحظة أنه بلغ قمة الوعي والتنوير! وبغض الطرف عن كمية الزيف والشوائب المصاحبة لهذا التدفق الضخم، يبقى السؤال الأهم مطروحًا: هل يعدّ هذا التدفق وعيًا حقيقيًّا، أم أنه مجرد وهمٍ مريح؟

■ عندما تتحول المعرفة إلى موضة للتباهي، فإنها تفقد -دون أدنى شك- عمقها وتأثيرها، وعندما تكون نقاشات الناس مجرد لهو ولغو وترندات جوفاء (للهبد)، فإنها لا تمتّ للوعي بأي صلة بالتأكيد، وعندما تُقاس الكتب بعددها وبشكلها في الرفوف لا بما قُرئ منها وتم استيعابه، فاعلم أننا أمام مشكلة حقيقية.. فالوعي ليس كلماتٍ تُحفظ، ولا مصطلحاتٍ تُردّد بشكل ببغائي، بل هي تجربةٌ تُعاش وتُطبق.. ليس المهم أن تعرف -مثلاً- أن الخوف طاقة سلبية، بل أن تواجه مخاوفك فعلاً، وليس من الضروري أن تحفظ تعريف احترام المخالِف، بل الأهم ألاّ يضيق صدرك لمجرد اختلاف بسيط في الرأي.. ولا يهم أن تثرثر هنا وهناك عن فضيلة «التسامح»، ثم تقضي بقية يومك في تصيد أخطاء الآخرين!

■ الوعي، يا سيدي، ليس في كمّ المعلومات التي تملكها أو التي تمر بمحاذاتك، بل في كيفية فرزها واستخدام الصحيح منها في محيطك وفي عموم حياتك.. ليس في عدد الكتب التي قرأتها، بل في التغيير الذي تركته في حياتك.. ليس في أن تبدو «واعيًا» بشكل لفظي أمام الناس، بل في أن تعي فعلاً حقيقتك الداخلية وتواجه نواقصك بكل شجاعة.

■ صحيح أن كمية الوعي المحيطة بنا اليوم هائلة، لكنها في كثيرٍ من الأحيان أشبه بماء البحر، كلما شربتَ منه أكثر ازددت عطشًا!